ابن الرومي وشعره

أيها السادة:

الحديث عن ابن الرومي يخالف الأحاديث عن غيره من الشعراء، حاشا أبا تمام؛ ومصدر هذا ما تجدونه في الكتب العربية قديمها وحديثها من أن أصل هذا الشاعر يوناني صريح لا يحتمل شكًا ولا خوفًا، وأن ابن الرومي كان قريبًا جدًا من أصله اليوناني لم يبعد العهد به، فلم تضعف وراثته، ولم يتأثر كثيرًا بوراثات أخرى، فهو إذًا بطبيعته وفنه مخالف كل المخالفة لكثرة الشعراء الذين عرفناهم في القرون الأولى للهجرة.

مولده ووفاته

حياة ابن الرومي كحياة غيره من الشعراء المعاصرين مجهولة أو كالمجهولة، فنحن نعلم أنه ولد سنة إحدى وعشرين ومائتين، وأنه مات بين سنة ست وسبعين ومائتين وسنة أربع وثمانين و مائتين ونحن نعلم أنه ماشت مسمومًا، وأن الذي سمه أو أمر من سمه هو القاسم بن عبد الله وزير المعتضد، كان يكرهه ويشفق منه فأغرى به من أطعمه شيئًا فيه السم.

شيء عنه

ونحن نعلم أنه كان شيء الحظ في حياته، لم يكن محببًا إلى الناس وإنما كان بغيضًا إليهم وكان محسدًا أيضًا. ولم يكن أمره مقصورًا على سوء حظه، بل ربما كان سوء حظه من سوء طبيعته، فقد كان حاد المزاج مضطربه معتل الطبع ضعيف الأعصاب، حاد الحس جدًا يكاد يبلغ من ذلك بالإسراف. وكان هذا كله قد أعطاه من الحياة صورة رديئة من ناحية، ومحببة من ناحية أخرى. كان اضطراب مزاجه يبغض إليه الناس ويسئ رأيه فيهم، ولكن قوة حسه ورقة طبعه كانت تحبب إليه كل اللذات. فكان يجمع بين الخصلتين. فهو رجل يحب اللذة ويسرف

فيها ويتهالك عليها. فه وإذا محب للحياة أشد الحب، وهو في الوقت نفسه مبغض للأحياء قبيح الرأي فيهم، يتبرم بهم أشد التبرم، ويود لو استطاع أن يتخلص منهم. أما الأحياء فكانوا يبغضونه كما كان يبغضهم. وأما الحياة فلست أدرى أكانت تحبه أم كانت تبغضه؟ ولكن الشيء الذي لا شك فيه أنه أخذ من اللذات بحظ لا باس به، ولعله أسرف في ذلك فضاعف ما كان يجده من ألم، وضاعف ما أن في أعصابه من اضطراب، وفي مزاجه من فساد.

وكلكم يعلم ما يتحدث به الناس عن ابن الرومي من أنه كان يتطير ويسرف في الطيرة، حتى كان ذلك يؤثر في حياته ومزاجه تأثيرًا شديدًا، وكان يضطره إلى أن يلزم بيته أيامًا لا يخرج؛ إما لأنه رأي جاره الأحدب، أو لأنه سمع صاحبًا له، هو على بن سليمان الأخفش، عبث به مرة كعادته، فمر عليه في الصباح فدق الباب. فإذا قيل: من الطارق؟ أجاب؛ مرة بن حنظلة، فتشاءم بهذا الاسم وأقسم لا يخرج. وان هذا يضطره أن يعذب نفسه ويعذب من معه.

هذا أكثر أو كل ما نعرفه عن ابن الرومي، وهو كما ترون ليس بالشيء الكثير، بل نحن نعرف شيئًا آخر وهو أن سوء حظ ابن الرومي لم يلزمه في حياته فحسب، بل لزمه بعد موته. فديوان ابن الرومي من أكبر دواوين الشعر العربي، بل لعله أكبرها وأضخمها وهو أقلها انتشارًا، ولعله لم يطبع إلى الآن، بل لم يطبع إلا جزء صغير ومختارات اختارها كاتب أديب من هذا الديوان، هو الأستاذ "كامل كيلاني" فهو إذن سيء الحظ في حياته وبعد موته. ويقال إن تشاؤمه وتطيره قد أصاب ديوانه أيضًا فيم يعرض له أحد إلا أصابه شيء.

وبعض الناس يتندر بذلك لأن الأستاذ العقاد أراد أن يكتب عنه فسجن، وأرجو ألا تكون محاضرتنا عنه مصدر شيء من هذه الشيء التي أعيذكم مها أنتم إن لم أعذ منها نفسي.

هو وأبو تمام

قلت إن ابن الرومي يخالف غيره من الشعراء الذين عاصروه أو جاءوا قبله، إلا واحدًا هو أبو تمام، وذلك أن طبيعة ابي تمام الشعرية مشبهة لطبيعة ابن الرومي من وجوه، فهما متفقان من حيث إنهما يعتمدان اعتمادًا شديدًا جدًا على العقل في شعرهما، وهما لا يستسلمان للخيال وحده، وإنما يتخذان الخيال وسيلة إلى تحقيق ما يريده العقل. وهما يتفقان في أنهما حريصان كل الحرص على تعمق المعاني وعلى استيفائها. واستقصائها، والمبالغة في هذا الاستقصاء حتى يأتيا بالأشياء الغريبة التي يضيق بها الناس الذين تعودا أن يقرءوا المألوف من الشعر، وهما لا يرضيان أن يكون أحدهما عبدًا للغة، وإنما يبيحان لنفسيهما تصريفها كما يريدان وكما تريد المعاني، دون أن يخضعا للتشدد في أصولها ومراعاة قواعدها؛ يتفقان في هذا كله،

ويختلفان بعد ذلك بعض الاختلاف. فأبو تمام أحرص جدًا من ابن الرومي على متانة اللفظ وروعته في أغلب شعره، لا يعدل عن هذه المتانة ولا ينصرف عن هذه الروعة إلا حين يضطره المعنى إلى ذلك اضطرارًا لا مخرج له منه. أما ابن الرومي فهو سهل في شعره لا يريد أن يشق على نفسه وعلى سامعيه، وهو يرسل لسانه على سجيته كما يرسل نفسه على سجيتها. فهو من أقل الشعراء كلفًا بالغريب وإيرادًا له، وعنايته بالجمال اللفظي قد تحس أحيانًا، ولكنها تلتمس فلا توجد في كثير من الأحيان. وقد تروعك سهولة اللفظ في البيت أو البيتين، ولكنك لا تستطيع أن تقرأ قصيدة كاملة دون أن تجد في هذه القصيدة من الألفاظ ما يغيظك أحيانًا، ويضيق به صدرك أحيانًا أخرى.

ثم هما يختلفان من ناحية أخرى في أن ابا تمام كان شديد الحرص على البديع والمحسنات البديعية، أو بعبارة أصح كان شديد الحرص على جمال الصنعة الفنية في الشعر. فهو كان يتتبع الاستعارة، ويسرف في تتبعها، ويجدّ ما استطاع في طلب الجناس والمطابقة، وما إلى هذه الأنواع من المحسنات البديعية. هو كان يجد في هذه الأشياء جمالا لابد منه، وكان يحرص على أن يلائم بين جمال الألفاظ وجمال المعاني.

ابن الرومي فهو لا يتحرج من البديع، ولكنه لا يتهالك عليه. وكما أنه لا يكلف بالغريب ولا يتكلف متانة اللفظ ولا جزالته ولا رصانته، فهو كذلك لا يكلف بهذا الطباق أو الجناس؛ إن وفق إلى هذه الأشياء فذاك، وإن لم يوفق فلا يعنيه.

وهما يختلفان من ناحية ثالثة، فأبو تمام شاعر من الشعراء، قصائده متوسطة لا تسرف في الطول، وله مقطوعات.

أما ابن الرومي فشاعر مطيل ومطيل جدًا، يبلغ بقصيدته المئات من الأبيات. وهذا الاختلاف بين الشاعرين في إطالة القصيدة مصدره واضح جدًا، وهو أن الشاعرين وإن اتفقا في الغوص في المعاني، فهما يختلفان في مقدار هذا الغوص، أو بعابرة أدق، في مقدار البسط والتفصيل في المعاني التي يظفران بها. أما أبو تمام فهو يبحث عن المعنى ويجد في التماسه ويظفر به ويعرضه عليك عرضًا متوسطًا، لا يطيل فيه ولا يسرف، بل في نفسه شيء من الاحترام لك والاعتراف بأن لك عقلاً يستطيع أن يتم ما لم يتمه هو، والاطمئنان إلى أنك ستتم هذا المعنى إتماماً حسنًا دون أن تقصر أو دون أن تغلو، فهو إذن يفصل المعنى، ولكنه لا يسرف في التفصيل، و يهمل الزوائد ويتجافى عن الأطراف.

أما ابن الرومي فالأمر في شعره ليس كذلك، فهو يمضي مع أبي تمام في الغوص على المعنى والتفتيش والجد في طلبه حتى يبلغ المعنى الجيد، فإذا ظفر بهذا المعنى ساء ظنه بالناس

في الأدب، كما يسوء ظنه بهم في الحياة العملية. فكما أنه كان يعتقد أن الناس ليسوا أخيارًا في معاملتهم، فهو كذلك كان يعتقد أن حظ الناس من الذكاء ليس بحيث يمكنه من أن يطمئن إليه في فهم المعاني. فهو إذن حريص ‘لى أن يتم معانيه بنفسه، ويستقصي البحث والعرض حتى لا يتعرض لأي عبث من الذين يسمعونه أو يقرءونه ومن هنا كان المعنى الذي يستطيع أبو تمام أن بعرضه في بيتين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة- على أكثر تقدير -يطيل فيه ابن الرومي في الأبيات التي تبلغ العشرة أو تتجاوزها. ومصدر هذا كما قلت هو أخذ أبي تمام بهما لا بد منه، وثقته بعقل الناس، وحرص ابن الرومي على أن يصل إلى كل شيء، وعدم اطمئنانه إلى الذين يسمعونه أو يقرءونه.

هل أقول أيضًا إن علم أبي تمام باللغة العربية والأدب العربي كان أوسع وأعمق من علم ابن الرومي بهذه اللغة وهذا الأدب؟ الواقع أن القدماء قد اتهموا أبا تمام بالسرقة، لأنه كان كثير الرواية للشعر يطيل النظر فيه، وظنوا أنه أسرف في استغلاله. ولست أدرى أكان هذا حقًا؟ ولكن الذي لا شك فيه أن إطالة الرواية وإطالة النظر في أشعار القدماء قد أثرت في فظ أبي تمام فجعلته من أرصن ألفاظ الشعراء في عصره، بينما ابن الرومي لم يعرف عنه تعمق كتعمق أبي تمام في الرواية، ولا في اللغة؛ وإنما كان حظه من هذا كحظ غيره من الشعراء الذين عاصرون. فهو إذن لا يمتاز بكثرة الرواية كما امتاز البحتري وأبو تمام. فليس غريبًا أن يظهر أثر هذا في شعره، وأن يكون شعره من أسهل الشعر الذي نعرفه في القرن الثالث للهجرة.

لفظ ابن الرومي غير متين، بل ربما كانت الجزالة والرصانة فيه نادرة، وشعره في هذها الناحية أقرب إلى النثر منه إلى الشعر، قريب إلى النثر من ناحيتين: إحداهما تعمده التفصيل والبسط والإجادة في أداء المعاني التي يريد أن يؤديها. فالذي نعرفه- لا في اللغة العربية وحدها بل في اللغات على اختلافها- أن الشعراء ليسوا في حاجة إلى الإطناب، ولا في حاجة إلى التفصيل الشديد، وأن الجمال الشعري ربما اعتمد على الإيجاز دون التفصيل، أو "اللمحة الدالة" كما يقولون. أما التفصيل والبسط والتطويل فهو من خصائص النثر ومن مزاياه. في هذه الجهة- جهة التفصيل والإطالة- ربما فسد شعر ابن الرومي بعض الشيء، لأن الشعر كما قلت لكم لا يحتاج إلى كل هذه الإطالة ولا إلى هذا التفصيل الذي أملّ القدماء، والذي أملّ ابن الرومي نفسه، واضطره أن يعتذر في بعض قصائده من الإطالة.

الشعر لا يحتمل هذه الإطالة في المعاني الغنائية، وهو إذا احتمله في القصص فقل أن يحتمله في غيره.

وأما الناحية الأخرى التي تقرب شعر ابن الرومي من النثر فهو هذه السهولة في اللفظ والإعراض عن التجويد اللفظي. فابن الرومي يبلغ من ذلك ما يريد أحيانًا، ولكنه لا يريد هذه

الإجادة في كثر من الأحيان. ويكفي أن تقرءوا قصيدة لابن الرومي فسترون فيها متانة عارضة، ولكنكم سترون فيها شيئًا يشبه العلة الدائمة في شعر ابن الرومي، وهو هذا اللفظ الذي يقرب من أذهان الناس جميعًا حتى يكاد يبلغ حد الابتذال.

خصائص شعر ابن الرومي

بعد هذه المقارن السريعة بين سعر ابن الرومي وأبي تمام بوجه عام. أريد أن ألفتكم إلى الخصائص التي تميز شعر ابن الرومي من الشعر العري عامة، والتي تظهر فيها آثار طبيعته اليونانية وآثار ثقافته اليونانية. فقد يكون من الحق علينا أيضًا ألا نغلو في إضافة خصائص ابن الرومي إلى طبيعة جنسه اليوناني أو إلى الوراثة اليونانية فيه، بل قد يكون من الحق أن نلاحظ أن التأثير اليوناني في شعر ابن الرومي، إن عاد إلى الوارثة فهو في الوقت نفسه يعود إلى الثقافة اليونانية الإسلامية.

لسنا نعرف أكان ابن الرومي يحسن اليونانية أم لا؟ وليست هناك نصوص تدلنا على أنه كان يعرف هذه اللغة معرفة تمكنه من أن يتصل بالآداب اليونانية مباشرة.

وابن الرومي ليس يونانيًا خالصًا، ولكنه يوناني من ناحية، وفارسي من ناحية أخرى. فإذا كان أبوه أو جده يونانيًا فأمه فارسية. وإذن فالطبيعة الخاصة التي تؤثر فيه ليست هي الطبيعة اليونانية الخالصة، ولا الطبيعة الفارسية الخالصة، إنما هي الطبيعة المختلطة. وإنما الذي كون عقله وملكته الشعرية هي ثقافته. وهذه الثقافة فيما يظهر كانت متأثرة جدًا بما عرفه المسلمون من الثقافات الأجنبية و العربية، وكانت في الوقت نفسه ثقافة عربية إسلامية. فهو على حظ لا بأس به من العلم بالعربية ولغتها، وهو على حظ لا بأس به من الدين الإسلامي وأحكامه، وحظ عظيم مما كان يعرفه الرجل المثقف من علوم اليونان غير الإسلامية.

وأن أضيف تكوين عقل ابن الرومي إلى الثقافة الإسلامية اليونانية أكثر مما أضيفه إلى وراثته اليونانية. ومن المحقق أن اجتماع الثقافة إلى تلك الوراثة هو الذي كون هذه الطبيعة الخاصة التي نجدها في شعر ابن الرومي.

نظرة ابن الرومي إلى الأشياء، ونظرته إلى الطبيعة، وتفكيره فيما يفكر فيه من المعاني، كال هذا يخالف المألوف عند الشعراء المتقدمين والمعاصرين، إلا في شعر ابن الرومي كما قلت لكم.

ابن الرومي كان قوى الخيال جدًا، وكان خياله بعيدًا ليس بالقريب، وكان حاد الحسن جدًا. وكان قوى الشعور، فكان إذا ألم بمعنى من المعاني تأثر به تأثرًا واضحًا. وربما كان أسحن

ما يصور لنا خاصية ابن الرومي، أو خصائصه في الشعر، أن نقف وقفة قصيرة عند شيء من شعره لنرى أنه كان يمتاز من الذين عاصروه ومن الذين تقدموه.

ما عيب على أبي تمام والرومي

قبل أن أقف عند شيء من هذا الشعر، أريد أن ألفتكم إلى نوع من النقد وجه إلى أبي تمام كما وجه إلى ابن الرومي. ذلك هو أن أبا تمام كان يضيف إلى الأشياء صفات ليس من المعقول أن تضاف إليها. فهو ينكرون مثلا على أبي تمام أنه كان يشخص؛ فهو كان يجعل للدهر أخدعين، وكان يجعل الدهر طويلا عريضًا وكان يجعل الدهر شيئًا يركب، وكان يصور هذه المعاني كما تصور الأشخاص. كان يتحدث إليها كما يتحدث إلى الأشخاص والكائنات الحية، ويضيف إليها من الأوصاف ما لا يضاف إلا إلى الأشخاص أيضًا. هذا النقد وجه إلى أبي تمام وأسرف الآمدي وغر الآمدي في أخذه به، وزعموا حين نقدوا أبا تمام أن هذا النوع من الاستعارة وجد عند المتقدمين، ولكن أقل جدًا مما وجد عند أبي تمام.

هذا العيب – إن كان عيبا– يوجد عند ابن الرومي أكثر جدًا مما يوجد عند غبي تمام للسبب الذي قدمته، وهو أن وقوف ابن الرومي عند المعاني أطول جدًا من وقوف أبي تمام عند هذه المعاني. ومتى كان الأمر كذلك، فطول وقوف ابن الرومي عند المعاني يضطره إلى أن يطيل النظر فيها، فهو يتصرف فيها ويعبث بها أكثر مما كان أبو تمام يتصرف في معانيه. وإذا كان أبو تمام قد استطاع أن يجعل للدهر أخدعين،أن يجعله طويلا وعريضًا، فإن ابن الرومي قد فعل ما هو أكثر من ذلك؛ فابن الرومي قد تصور هذه المعاني على أنها أشخاص، ووقف هذه الأشخاص منه موقف المتحدث الذي يخاصمه ويطيل معه الخصومة، فهو أجرى في معانيه حياة وحركة من شأنها ألا تجري إلا في الكائنات الحية. ثم لم يكتف بذلك بل جعل هذه المعاني عقولا تفكر وتقاضي. فهو إذن قد جعل معاني أشخاصًا من الناس وجعلها تفكر وتناقش على أصول المنطق. وهو إذن قد جعل معانيه كأنها أشخاص من الناس، وجعل الحياة ملعبًا أو مسرحًا من مسارح التمثيل، وجعل هذه المعاني هي الأشخاص أو أبطال القصة. هذا النحو من التفكير وهذا النحو من معالجة المعاني، وإجراء التفكير فيما ليس من شأنه أن يفكر، وإطالة هذا التفكير وهذا الحوار من الأشياء التي تدل على أنها نتيجة من نتائج الطبيعة والثقافة اليونانية عند أبي تمام وابن الرومي، وهي هذه الطبيعة التي أنشأت فن التمثيل عند اليونان، والتي لم تستطع أن تتصور الشعر الغنائي نفسه كما تصوره العرب على أنه مجرد التعبير عن الآراء المختلفة والميول المتباينة، وإنما اضطرت إلى أن تثبت الحركة، واضطرت إلى أن يكون غناؤها نفسه تمثيلا، وأن يتكلف غير واحد إنشاد الشعر الغنائي. فالشعر الغنائي عند اليونان لم يكن في

أول الأمر يستقل بإنشاده شاعر واحد، وإنما كان يشاركه في ذلك شاعر آخر، ويستعين بالمغنين والموقعين.

هذا النوع من الكثرة أو من التعديد، أو من إيجاد المغايرة الظاهرة جدًا بين الفرد الذي يتأثر بالمعاني ويحس العواطف، هذا النوع من التفكير هو الذي يميز ابن الرومي وأبا تمام من الشعراء الذين تقدموها أو عاصروهما.

قصيدته في عتاب الشطرنجي

ويكفي لأجل أن تفهموا هذا النوع أن تنظروا إلى هذه القصيدة التي يعاتب بها صاحبه وصديقه أبا القاسم الشطرنجي، انظروا إليه كيف يبدأ هذه القصيدة، وكيف يكونّ من الخصال السيئة التي استكشفها عند صاحبه جماعة من الأشخاص يتحدث إليهم ويتحدثون إليه:

يـــا أخـــي أيـــن ربـــع ذاك اللقـــاء؟ أيـــن مـــا كـــان بيننـــا مـــن صـــفاء؟

ايـــن مصـــداق شـــاهد كـــان يحكـــي أنـــك المخلـــص الصـــحيح الإخـــاء؟

شـــاهد مـــا رأيـــت فعلـــك إلا غيـــر مـــا شـــاهد لـــه بالـــذكاء

كشـــفت منـــك حـــاجتي هنـــوات غطيـــت برهـــة بحســـن اللقـــاء

هذه الهنوات التي كشفتها حاجته عند صاحبه، وهي التي سيشخصها ابن الرومي، وسيتخذ منها جماعة يسبغ عليهن ثوب النساء، وسيتحدث إليهن وسيكون بينه وبينهن حوار لو اتسعت اللغة العربية له لكان كالحوار التمثيلي، ولكنها لم تكن تتسع له في ذلك العصر، فلم يسعه إلاَّ أن يقول "قلت، وقلن" أي أن يحدث بينه وبينهن سؤالاً وجوابًا "قلن، وقلت".

تركتنـــي ولـــم أكـــن ســـيء الظـــ ن أســـيء الظنـــون بالأصـــدقاء

أنظروا أولاً إلى "الظن" و "الظنون" وإلى تكرار هذا اللفظ مفردًا في الشطر الأول وجمعًا في الشطر الثاني، فهو يحدث لنا موسيقى كالبحتري حين كان يكرر الألفاظ، أو يرشح في الشطر الأول للقافية التي تأتي في الشطر الثاني كقوله:

وحســناء لــم تحســن صــنيعًا وربمــا صــبوت إلــى حســناء ســيء صــنيعها

يقول ابن الرومي:

قلـــت لمـــا بـــدت بعينـــي شـــنعا رب شـــوهاء فـــي حشـــا حســـناء

يقول إنه لما رأى هذه الخصال التي ظهرت له أساء ظنه بأصدقائه، ولم يكن من شأنه ذلك، وقال: ربما توجد المرأة السيئة في ظل المرأة الحسناء، إذ ربما توجد الخصلة السيئة في ظل الخصال الحسنة.

ليتنـــي مـــا هتكـــت عهـــنكن ســـترًا فثـــويتن تحـــت ذاك الغطـــاء

في البيت السابق كان يتحدث إلى نفسه، ثم انتقل إلى الحديث إلى هذه الخصال.

وأحب أن ألفتكم إلى شيء من الإهمال في هذا البيت وهو قوله "ذات: كأنه يتحدث إلى مفرد، ولكنه يتحدث إلى الجميع ولست أقول إن هذا خطأ فإنه مألوف شائع، ولكني أقول إن فيه إهمالا في الذوق، وستجدون هذا الإهمال كثيرًا جدًا في شعر ابن الرومي:

قلـــن: لـــولا انكشـــافنا مـــا تجلـــت عنـــك ظلمـــاء شـــبهة قتمـــاء

يقول: لولا أننا ظهرنا لك ما تجلت عنك هذه الشبهة المظلمة التي تغشتك في صاحبك أبي القاسم.

قلـــت أعجـــب بكـــن مـــن كاســـفات كاشـــفات غواشَـــي الظلمـــاء

قـــد أفـــدتُّني مـــع الخبـــر بالصـــا حـــب أن رب كاســـف مستضـــاء

هنا يلم ابن الرومي بالبديع- كاسفات كاشفات (جناس)- كاسف مستضاء (نوع من المطابقة).

قلـــن: أعجـــب بمهتـــد يتمنـــى أنـــه لـــم يـــزل علـــى عميـــاء

كنـــت فـــي شـــبهة فزالـــت بنـــا عنـــ ك فأوســـعتنا مـــن الإرزاء

وتمنيـــت أن تكـــون علـــى الحيـــ رة تحـــت العمايـــة الطخيـــاء

الخصال هي التي تتحدث إليه، فتقول: عجيب أنك مهتد، ولكنك تتمنى أن تظل حائرًا، مع أننا نكشف عنك الشبهة!

قلـــت تـــالله لـــيس مثلـــي مـــن وَد ضـــــــلالاً وحيـــــرة باهتـــــــداء

غيـــر أنـــي وددت ســـتر صـــديقي بـــــــدلاً باستفاضـــــــة الأنبـــــاء

قلـــن هـــذا وهـــوى فعـــرِّج علـــى الحـــ ق وخـــــل الهـــــوى لقلـــــب هـــــواء

أظنكم تلاحظون أن الهوى كثر في هذا البيت:

لـــــيس فـــــي الأن تـــــود لخـــــلٍّ أنـــــــه الـــــــدهر كـــــــامن الأدواء

بـــل مـــن الحـــق أن تنقِّـــر عنهـــ ن وإلا فأنـــــــــــت كالبُعـــــــــداء

إنَّ بْحـث الطبيـب عـن داء ذي الـدا ء لأسُّـــس الشـــفاء قبـــل الشـــفاء

دونـــك الكشـــف والعتـــاب فقـــوِّم بهمـــــا كـــــل خَلـــــة عوجـــــاء

وإذا مـــا بـــدا لـــك العُـــرُّ يومًـــا فتتبـــــــع نقابـــــــه بالهنـــــــاء

قلـــت فـــي ذاك مـــوْتكنّ ومـــا المـــو ت بمســـــتعذَب لـــــدى الأحيـــــاء

قلـــن مـــا المـــوت بالكريـــه إذا كـــا بحـــق فـــلا تـــزد فـــي المـــراء

فأنتم ترون إلى هذا الحوار بين ابن الرومي وبين هذه الخصال من صاحبه وقد كان مغرمًا به مسرورًا من حسن العشرة، وما كان يظهر له من أنه مخلص صحيح الإخلاص، ثم عرضت له حاجة فتقدم فيها إلى أخيه فلم يسعفه ولم يواته، فاستكشف أنه ليس كله حسنًا. وبدت له هذه العيوب شنيعة قبيحة، فأسف لأنه فتش عن صاحبه فبدت له عيوبه، وود لو لم تظهر هذه العيوب، ولكن هذه الخصال نطقت بنفسها وقالت: قد أزلنا عنك الشبهة، وعرفناك حقيقة الصديق. وهذا النحو هو الذي نجده في القصص التمثيلية اليونانية عند "إسكيلوس" أو "سوفوكليس" أو "إيروبيد".

ثم يتحدث ابن الرومي إلى صديقه وصاحبه أبي القاسم في عتاب، فانظروا كيف يستقصى المعاني، ولا يطمئن إلى الإيجاز، وإنما يفصل ويشرف في التفصيل:

يا أخي هبك لم تهبْ لي من سعـ ... ـيك حظًا كسائر البخلاء

أفلا كان منك رَد جميل ... فيه للنفس راحة من عناء؟

أجزاء الصديق إيطاؤه العَشْـ ... ـوة حتى يظل كالعشواء؟

تاركًا سعيه اتطالا على سعـ ... ـيك دون الصحاب والشفعاء

كالذي غره السراب بما خيـ ... ـل حتى هراق ما في السقاء

أراد أن يقول لصاحبه: هبك لم ترد أن تجيبني إلى ما طلبت، وهبك لم ترد أن تسعى إلى هذه الحاجة التي كلفتك السعي فيها، أما كان ينبغي أن يجيب جوابًا حسنًا أستطيع أن أطمئن إليه؟ هذا هو المعنى الذي كان يريد أن يقوله وقد فصلته هنا تفصيلا، ويستطيع الكاتب المجيد أن يوجزه أكثر ما قلت أنا. ولكن ابن الرومي لا يطمئن إلى ذكاء قارئ أو سامع في أن يستكمل المعنى ويتمه إذ ظفر به. ثم يقول بعد ذلك:

يا أبا القاسم الذي كنت أرجو ... هـ لدهري قطعتَ متن الرجاء

بكرُ حاجات من يعدّك للشد ... ة طورًا وتارة للرخاء

نمتَ عنها وما لمثلك عذر ... عند ذي نُهية على الإعفاء

قسما لو سألت أخرى عوانًا ... لتنمرت لي مع الأعداء

لا أجازيك من غرورك إيا ... ي غرورًا وقيت سوء الجزاء

تلاحظون أن في هذه الأبيات، من أول "يا أخي" إلى آخر بيت وقفنا عنده، عذوبة في اللفظ ورفقًا في الحديث نلاحظ فيه العتاب بمعناه الصحيح، هو شيء بين الرضا والسُّخط، بل هو سخط يلبسه صاحبه ثوب الرضا، هو شيء قريب من الهجاء ولكنه ليس هجاء.

وابن الرومي يجيد هذا الفن إجادة لا حد لها، فهو شديد على صاحبه، ولكنه على شدته هذه رفيق بالحديث. وهو يحس أنه لم يبلغ من الشدة ما ينبغي من صاحبه، فهو بعد أن قال كل ما سمعتم يقول:

بـــل أرى صـــدْقك الحـــديثَ ومـــاذا ... ك لبخـــــل عليـــــك بالإغضـــــاء

أنـت عينـي ولـيس مـن حـق عينـي ... غـــضٌ أجفانهـــا علـــى الأقـــذاء

فهو يعتذر إذًا عن هذا الدرس القاسي الذي سيلقيه على صاحبه، والذي بدأ في إلقائه منذ حين:

مـــا بأمثـــال مـــا أتيـــتَ مـــن الأمـــ ... ـر يحـــــل الفتـــــى ذُري العليـــــاء

لا ولا يكســـب المحامـــد فـــي النـــا ... س ولا يشـــــتري جميـــــل الثنـــــاء

لـــيس مـــن حـــل بالمحـــلّ الـــذي أنـــ ... ـت بـــــه مـــــن ســـــماحة ووفـــــاء

بـــــذل الوعـــــد للأخـــــلاء ســـــمحًا ... وأبـــــى بعـــــد ذاك بـــــذْل الغَنـــــاء

فغـــدا كـــالخلاف يـــورق للعيـــ ... ـن ويـــأبى الإثمـــار كـــل الإبـــاء

انظروا إليه كيف ينتقل من الحديث السهل والعتاب الرقيق والخصومة اللينة، إلى هذا العنف وهذه الشدة في التأنيب والتقريع، حتى يصل إلى أن يقول لصاحبه: إن الذي يريد أن يبلغ العلا، وأ، يكسب المحامد للناس، لا ينبغي أن يأتي من الأمر مثلما أتيت. وليس هكذا يفعل من بلغ مرتبة في السماحة، يعد ثم لا يفي كأنه الصفصاف يورق للعين حتى يخدعها. ثم لا يتحرج أن يصف صاحبه بالنفاق فيقول:

لـــيس يَرضـــى الصـــديق منـــك ببشـــر ... تحـــــت مخبـــــوره دفـــــينُ جفـــــاء

وهنا يحس ابن الرومي أنه اشتد على صاحبه، واشتط في الشدة، وغالي حتى آلمه، وهاج حفيظته. وهو مضطر إلى أن يرق، ويصرف صاحبه عن هذا الحديث الخشن الثقيل، فهو يخرج من العتاب إلى نوع من التملق واللطف، فهو يصف صاحبه.

يـــا أخـــي يـــا أخـــا الدماثـــة والرّقـــ ة والظرف والحِجاء والدهاء.

انظروا إلى هذه الصفات التي جمعها وربتها في هذا البيت بعد هذا التقريع العنيف، هو مضطر إلى أن يخفف من حدة هذا التوبيخ، فيأتي بهذا البيت يجمع فيه كل هذه الصفات الحسنة، وهي هنا أسبه بالدش البارد، ثم لا يكتفى بهذه الصفات بل يفصل فيقول:

أتـــرى الضـــربة التـــي هـــي غيـــب خلـــف خمســـين ضـــربة فـــي وَحـــاء

ثاقـــبَ الـــرأي نافـــذَ الفكـــر فيهـــا غيـــــر ذي فَتـــــرة ولا إبطـــــاء

ويُلاقيـــــك ســـــبعة فيظلـــــو ن علـــــى ظهـــــر آلـــــة حـــــدباء

تهـــزم الجمـــع أوْحـــديًا وتُلـــوي بالصـــــــناديد أيمـــــا إلـــــواء

وتحـــظ الزّجـــاج بعـــد الفرازيـــ ن فتـــــزداد شـــــدةَ اســـــتعلاء

ربمـــا هـــالني وَحيَّـــر عقلـــي أخـــــذُك اللاعبـــين بالبأســـاء

ورضـــاهم هنـــاك بالنصـــف والرُّبـــ ـــع وأدنـــى رضـــاك فـــي الإربـــاء

واحتـــراسُ الـــدهاة منـــك وإعصـــا فُـــــك بالأقويـــــاء والضـــــعفاء

عـــن تـــدابيرك اللطـــاف اللـــواتي هُـــن أخفـــى مـــن مُستســـرّ الهبـــاء

بـــل مـــن السَّـــر فـــي ضـــمير محـــب أدّبتْـــــه عقوبـــــة الإفشـــــاء

انظروا إلى هذا البيت فهو من أجمل تشبيهات ابن الرومي؛ فهو يريد أن يقول إن نبوغ صاحبه في علب الشطرنج نبوغ خفي دقيق، كأنه السر في ضمي المحب الذي افشى سره مرة، فعوقب على هذا الإفشاء.

فإخـــال الـــذي تُـــدير علـــى القـــو مُ حروبًـــــا دوائـــــر الأرجـــــاء

وأظـــن افتراســـك القـــرْن فـــالقر ... ن مَنايـــــــا وشـــــــيكةَ الإرداء

وأرى أن رقْعـــــة الأدَم الأحمـــــر ... أرضُ علَّتهـــــــــا بـــــــدماء

غلـط النـاس لسـت تلعـب بالشـطرنج ... لكـــــنْ بـــــأنفُس اللعبـــــاء

أنـــت جـــديُّها وغيـــرك مـــن يلعـــب ... إن الرجـــــال غيـــــر النســـــاء

لـــكَ مكـــر يـــدب فـــي القـــوم أخفـــى ... مـــن جبيـــب الغـــذاء فـــي الأعضـــاء

أو دبيـــب المـــلال فـــي مُســـتهامين ... إلـــــى غايـــــةٍ مـــــن البغضـــــاء

انظروا إلى هذا البيت جيدًا " أو مسر القضاء":

أو مَســـر القضـــاء فـــي ظُلَـــم الغيـــب ... إلـــــى مَمـــــن يريـــــده بـــــالتواء

أوسُـــرى الشـــيب تحـــت ليـــل شـــباب ... مُســـــتجر فـــــي لمَّـــــة سْـــــحماء

دبْ فيهـــا لهـــا ومنهـــا إليهـــا ... فاكتســـت لـــونَ رثـــة شـــمطاء

تقتـل الشـاه حيـث شـئت مـن الرقعـة ... طبـــــــا بالقتلـــــــة النكـــــــراء

غيـرَ مـا نـاظر بعينـك فـي الدَّسـت ... ولا مُقبـــــل علـــــى الرُّســـــلاء

بـــل تراهـــا وأنـــت مســـتدبر الظهـــر ... بقلْـــــبُ مصـــــور مـــــن ذكـــــاء

مـــا رأينـــا ســـواك قِرْنًـــا يُـــولِّى ... وهـــو يُـــردى فـــوارس الهيَجـــاء

رب قـــوم رأوك ريعـــوا فقـــالوا ... هـــل تكـــون العيـــون فـــي الأقفـــاء

والفـــؤاد الـــذكىّ للمطـــرق المُعـــرض ... عـــينٌ يـــرى بهـــا مـــن وراء!

تقـــرأ الدّســـت ظـــاهرًا فتـــؤدي جمعيًـــــا كـــــأحفظ القُـــــراء

وتُلقـــى الصـــوابَ فيمـــا ســـوىَ ذاك إذا جـــــــار جـــــــائرُ الآراء

هذه الأبيات من أجمل ما قيل في اللغة العربية في لعب الشطرنج، ولكن ابن الرومي من غير شك لم يكن يريد أن يمدح صاحبه، ولا أن يتملقه ببراعته في لعب الشطرنج من حيث إنه بارع ماهر، وإنما هو يتخذ هذا الوصف والثناء ذريعة إلى أن يخفف عن صاحبه حدة هذا التقريع، فهو يريد أن يترضاه وأن تملقه فيصفه بأحب الأشياء إليه وبالشيء الذي يجد فيه هذا الرجل رضاً وراحة، وهو مارته في لعب الشطرنج. ثم يمضي ابن الرومي، فيصف صاحبه بالذكاء وبالذكاء النادر، ويصفه بهذا الذكاء الذي يجمع إلى البراعة استقامة في الخلق، بأنه لا لأي تهالك على السلطان، ولا يتهالك على الثروة. وهو من أجل هذا أعرض عن صحبة الملوك وصحبة المترفين والأمراء. ومن أجل هذا أيضًا ابتعد عن التجارة وربحها. وهو يؤثر حياة هؤلاء الناس الذين يرضون الحياة السهلة اللينة، ولكن بما فيها من ضيق اليد من الترف الميسور، واللذة العقلية، يؤثر هذا على الثروة والجاه، ويمضي في هذا حتى يوقن أنه أرضاه.

فإذا بلغ ابن الرومي من ذلك ما أردا بأن جمل صاحبه على أن يعجب بنفسه وخلقه وفلسفته، إذا بلغ من ذلك ما أراد، وإذا نسى صاحبه ذلك التقريع والتعنيف، عاد بغاية اللين والسهولة وعاتبه وسأله: أترى كل هذه الأشياء التي حدثتك عنها مجتمعة فيك، ثم يعسر عليك بعد ذلك أن تفهم مودتي وصداقتي، وأن تسعى وراء هذه الحاجة التي كلفتك السعي فيها. حتى إذا بلغ من هذا العتاب مأربه اشتد مرة أخرى وعنف صاحبه، ولم يكتف بهذا العنف وهذا التقريع، بل يلتمس قاضيًا، هذا القاضي هو أبو بكر أخو أبي القاسم، فيعرض عليه القضية ويطلب إليه أن يمضي فيه رأيه، ولا يمكن أن يكون فيها إلا عدلا.

فيصور صاحبه أنشع صورة أمام القاضي، فإذا فعل ذلك عاد إليه فاستعطفه بأرق لفظ حلو، وأكد له أنه لم يرد هجاء، إنما يريد عتابًا. ثم تنتهي هذه القصيدة عند هذا الحد، وليست أرى باسًا أن تسمعوا ما بقي منها بعد هذا التخلص:

فتـــرى أنَ بُلغـــةً معهـــا الراحـــة خَيـــــر مـــــن ثـــــروة وَشـــــقاء

رُؤيـــــة لا خـــــلاج فيهـــــا ولـــــولا ذاك لـــم تَأبـــب صـــحبةَ ابـــن بُغـــاء

وهو موسى وصاحب السيف والجيش وركـــــــن الخلافـــــــة الغلبـــــــاء

بعْتَـــه واشـــتريت عيشًـــا هنيئًـــا ... رابـــح البيـــع كيِّسًـــا فـــي الشـــراء

وقـديمًا رغبـتَ عـن كـل مصـحوب ... مـــــن المتـــــرفين والأمـــــراء

ورفضـــت التجـــارة الجمَـــة الـــربح ... ومـــا فـــي مراســـها مـــن جَـــداء

وهـذى العـاذلون مـن جهـة الـربح ... فخليـــــتهم وطُـــــول الهُـــــذاء

أعرضـــتْ عـــنهم عزائمـــك الصـــمُّ ... بـــــأذن سَـــــميعة صَـــــماء

حـــين لـــم تكتـــرث لقـــول أخـــي ... غـــش يـــرى أنـــه مـــن النُّصـــحاء

وإذا صـــح رأي ذي الـــرأي تَنظـــر ... بعينـــــي مشـــــورة عـــــوراء

لـــم تبـــع طيـــب عيشـــة بفضـــول ... دونهـــا خُبـــث عيشـــة كـــدراء

تعـــبُ الـــنفس والمهانـــةُ والذلـــة ... والخـــوف واطـــراح الحيـــاء

بـــل أطعـــت النهـــى ففـــزْت بحـــظٍّ ... قصُـــرت عنـــه فِطنـــة الأغبيـــاء

راحـــةُ الـــنفس والصـــيانة والعفـــة ... والأمـــن فـــي حيـــا ورَواء

عالمًـــا بالـــذي أخـــذتَ وأعطيـــت ... حكيمـــا فـــي الأخـــذ والإعطـــاء

جهبـــذا العقـــل لا يفوتـــك شـــيء ... مثلُـــه فـــات أعـــينَ البصـــراء

غيـرَ مُسـتزل عـن الوَضَـح الأطلـس ... والزائـــف الصـــبيح الـــروَّاء

قـــائلا للمُشـــير بالكـــدح مهـــلا ... مـــا اجتهـــاد اللبيـــب بعـــد اكتفـــاء

قــرَّب الحــرص مَركبًــا لشــقيّ ... إنمــا الحــرص مرْكــب الأشــقياء

مرحبًــا بالكفــاف يــأتي هنيئًــا ... وعلــى المُتعبــات ذيــل العفــاء

ضــلة لامــرئ يُشــمر فــي الجمــع ... لعــيش مُشــمر للفنــاء

دائبًــا يكنــزُ القنــاطير للــوارث ... والعمــر دائــبُ فــي انقضــاء

حَبــذا كثــرة القنــاطير لــو كانــت ... لــب الكنــوز كنــزَ بقــاء

يَعتــدي يَــرحم الأســيرُ أســيرًا ... جــاهلا أنــه مــن الأسَّــراء

لا إلــى الله يــذهب الحــائرُ البــائر ... جهــلاً ولا إلــى السَّــرّاء

يَحســب الحــظ كلــه فــي يديــه ... هــو منــه علــى مــدى الجــوزاء

لــيس فــي آجــل النعــيم لــه حَــظ ... ومــا ذات عاجــل النعمــاء

ذلــك الخائــب الشــقيّ إن كــان ... يــرى أنــه مــن الســعداء

حســب ذي غربــة ورأى جلــيّ ... نظــرتْ عينــه بــلا غُلَــواء

صــحة الــدين والجــوارح والعــرض ... وإحــرازُ مســكة الحوبــاء

تلــك خيــرٌ لعــارف الخيــر ممــا ... يَجمــع النــاسُ مــن فضــول الثــراء

ولهــا مــن ذوي الإصــالة عشــا ... ق وليســوا بتــابعي الأهــواء

لــيس لمكثــر المــنغص عــيش ... إنمــا عــيش عــائش بالهنــاء

يــا أبــا القاســم الــذي لــيس يخفــى ... عنــه مكنــون خُطــة عوصــاء

أتــرى كــل مــا ذكــرت جليًــا ... وســواه مــن غــامض الأنحــاء

ثــم يخفــى عليــك أنــي صــديق ... ربمــا عــز مثــلُ بــالغلاء

لا لعمــر الإلــه لكــنْ تعاشــيت ... بصــيرًا فــي ليلــة قمــراء

بـل تعاميـت غيـر أعمـى عـن الحـق ... نهــارًا فــي ضــحوة غــراء

طالمًــا لــي مــع الزمــان الــذي ابتــز ... حقــوق الكــرام للُّؤمــاء

ثَقُلــت حــاجتي عليــك فأضــحت ... وَهــي عــبء مــن فــاح الأعبــاء

ولهــا محمــل خفيــف ولكــنْ ... كــان حظــي لــديك دون اللقــاء

كــان مقــدار خُرمتــي بــك فــي ... نفســك شــيئًا مــن تافــه الأشــياء

فتوانيــتَ والتــواني وطــئ الظهــر ... لكنــه ذمــيم الوطــاء

كنــت ممــن يــرى التشــيع لكــنْ ... ملــت فــي حــاجتي إلــى الإرجــاء

ولعمــري لقــد ســعيتَ ولكنــك ... عــذرت بعــد طــوال التــواء

فتنــزه عــن الريــاء فتعــذيرك ... فــي الســعي شــعبة مــن ريــاء

ليس يُجدي عليك في طلب الحاجات ... جــات إلا ذو نيَّــة ومضــاء

وحسـناء لـم تحسـن صـنيعًا وربمـا ... صـبوت إلـى حسـناء سـيء صـنيعها

ظُلمــتْ حــاجتي فــلاذت بحقويــك ... فأســلمتها لكــف القضــاء

وقضــاءُ الإلــه أحــوطُ للنــاس ... مــن الأمهــات والآبــاء

غيـــر ا، اليقـــين أضـــحى مريضًـــا ... مرضًـــا باطنًـــا شـــديدًا الخفـــاء

مـــا وجـــدتُ امـــرأ يـــرى أنـــه يُـــوقن ... إلا وفيـــــه شَـــــوب امتـــــراء

لـــو يصـــح اليقـــين مـــا رغـــب الراغـــب ... إلا إلـــــى مليـــــك الســـــماء

وعســـيرٌ بلـــوغُ هـــاتكي جـــدا ... تلـــك عليـــا مراتـــب الأنبيـــاء

كنـــت مستوحشًـــا فـــأظهرتَ بخسًـــا ... زادنـــي وحشـــةً مـــن الخلطـــاء

وعزيـــز علـــيّ عضـــيك بـــاللوم، ... وكـــن أصـــبتَ صـــدري بـــداء

أنـــت أدويـــتَ صـــدر خلـــك فاعـــذره ... علـــى النفـــث إنـــه كالـــدواء

لا تلـــومنّ لائمًـــا وَع اللومـــاء ... فـــي كُنـــه موضـــع اللوْمـــاء

إن تكـــن لفحـــةٌ أصـــابتك مـــن غـــذلي ... فعمـــا قـــدحت فـــي الأحشـــاء

يـــا ابـــا بكـــر المشـــار إليـــه ... بانقطـــاع القـــرين فـــي الأدبـــاء

قـــد جعلنـــا جاكمًـــا فـــاقض بـــالحق ... ومـــا زلـــت حكـــام الظرفـــاء

تأخـــذ الحـــق للمحـــق وتنهـــى ... عـــن ركـــوب العـــداء أهـــلَ العـــداء

ليس يُؤتي الخصمان من جَنف فيك ... ولا مـــن جهالـــة وغبـــاء

هل تـرى مـا أتـى أخـوك أبـو القاسـم ... فـــي حـــاجتي بعـــين ارتضـــاء؟

لـــم حقُـــوق عليـــه أصـــبحت يُلويهـــا ... فطالبـــه لـــي بوَشـــك الأداء

لســـتُ أعتـــدّ لـــي عليـــه يـــدًا ... بيضـــاء غيـــر المـــودة البيضـــاء

تلـــك أو أننـــي أخٌ لـــو دعـــاه ... لمهـــم أجـــاب أوْلـــى الـــدعاء

يتقاضـــى صـــديقه مثـــل مـــا يبـــذل ... مـــــن ذات نفســـــه الســـــواء

وأناديـــك عائـــدًا يـــا أب القاســـم ... أفـــديك يـــا عزيـــز الفـــداء

قـــد قضـــينا لُبانـــة مـــن عتـــاب ... وجميـــــل تعاتـــــبُ الأكفـــــاء

ومـــع العتـــب والعتـــاب فـــإني ... حاضـــر الصـــفح، واســـع الإعفـــاء

ولـك الـود كالـذي كـان مـن خللـك ... والصـــــدر غيـــــر ذي الشـــــحناء

ولـــك العـــذر مثـــل قـــافيتي ... فيـــك اتســـاعًا فإنهـــا كالفضـــاء

وتأمـــــل فإنهـــــا الـــــفُ ... المـــد لهـــا مـــدة بغيـــر انتهـــاء

والـــذي أطلـــق اللســـان فعاتبتـــك ... عـــــــديك أول الفهمـــــــاء

لـم أخـف منـك غلطـة حـين عاتبتـك ... تـــدعو العتـــاب باســـم الهجـــاء

وأنـــا المـــرء لا أســـوم عتـــابي ... صـــاحبًا غيـــر صَـــفوة الأصـــفياء

ذا الحجـــا مـــنهمُ وذا الحلـــم والعلـــم ... وجهـــــل ملامـــــةُ الجهـــــلاء

إن مـــــن لام جـــــاهلاً لطبيـــــبٌ ... يتعـــــاطى عـــــلاجَ داء عيـــــاء

لســـتُ ممـــن يَظـــل يربـــع بـــاللوم ... علـــى منـــزل خَـــلاء قَـــواء

فأنتم ترون أن هذه القصيدة، التي هي من أواسط قصائد ابن الرومي، وله كثير خير منها، لو اتسع الوقت لدراستها معكم درساً مفصلا، تعطينا فكرة واضحة عن ابن الرومي.

مع أن هذه القصيدة لا تكاد تتجاوز تسعة وعشرين ومائة بيت فقد ألم فيها بفنون مختلفة؛ فهو مادح وو محاور، وهو واصف، وهو بالغ بعتابه حدًا نستطيع أن نقول إنه الهجاء، ولكنه نفسه يقول إنه لا يهجو. وهو على هذا ملم بطائفة غير قليلة من الفنون الشعرية. وهو على هذا حريص أن يرتب قصيدته وألا يرسلها إرسالاً، وإنما هو كأبي تمام يرتب قصيدته ترتيبًا منطقيًا دقيقًا، فأنتم حينما تقرءونها لا تستطيعون أن تقدموا جزءًا على جزء، إنما تقرءونها كما رتبها هو، وأنتم مضطرون إلى أن تنتقلوا معه من معنى إلى معنى، ومن فصل إلى فصل من فصول القصيدة إلى فصل آخر.

وابن الرومي من أخص الشعراء الذين جعلوا شعرهم فصولا كالنثر – يقسم قصيدته إلى فصول يبدأ الفصل فيستقصيه ويتمه، ثم ينتقل إلى فصل آخر، ومن حيث إنه يطيل فهذا أظهر في شعره منه في شعر أبي تمام.

إذن هذه القصيدة كما ترون على جمعها لكثر من فنون ابن الرومي تصور لنا الخاصة التي يمتاز بها، وهي إسباغه الحياة والحركة على الأشياء والمعاني.

آسف أشد الأسف لأن ساعة أو ساعات لا تكفي لأداء ما كنت أود أن أؤديه. ولكن ما تخسرونه من ضيق الوقت ليس شيئًا؛ فإن ابن الرومي ظل طول العصور مضطهدًا، فلما جاء هذا العصر كوفئ عن صبره أحسن مكافأة، لأنه درس وفكر فيه أكثر ما درس غيره من الشعراء، لا أكاد أستثني إلا المتنبي وأبا العلاء، ودرس دراسة تلائم عصرنا، درسه بنوع خاص الأستاذان العقاد والمازني.

العقاد وابن الرومي

أما العقد فكتب عنه كتابًا هو من غير شك أحسن ما كتب عن ابن الرومي إلى الآن، وإن كان الأستاذ العقد عني بالشاعر أكثر مما عني بالشعر، ولكن هذا نفسه فوز كبر، فشخصية ابن الرومي من أحسن الشخصيات الإنسانية التي يجب أن تدرس. وأنا حين أقول الإنسانية أعني ما أقول، فالباحثون يجب أن يعنوا بابن الرومي لا أقول في الأدب وحده بل في الأدب والفلسفة وعلم النفس. فالأستاذ العقاد في كتابه– على عنايته بالشاعر– قد أحسن إلى ابن الرومي، وأحسن إلى الأدباء المعاصرين إحسانًا لا حد له.

المازني وابن الرومي

وعني المازني في مقالاته عن ابن الرومي في كتابه "حاصد الهشيم" عناية اشهد أنها من أقوى العنايات، فلا أعرف أني قرأت شيئًا أروع ولا أمتع من هذه الفصول التي كتبها. والمازني قد يكون أكثر استشهادًا بشعر ابن الرومي من العقاد، ولكنه كالعقاد يقف عند شخصية ابن الرومي أكثر مما يقف عند الجمال والتحليل الفني، والظاهر أنهما يكلفان كلفًا خاصًا بشخصيات الشعراء.

أما أنا فربما عنيت بالشعر أكثر من عنايتي بالشعراء، وربما اتخذت الشاعر وسيلة إلى فهم الشعر، ولذلك أرجو أن تتيح لي الأوقات والظروف أن أدرس مع العقاد والمازني أبن الرومي، ولكن من ناحية شعره وفنه، لا من ناحية شخصه، فأظن أنهما قد بلغا من ذلك فوق ما أريد.